المدينة في عهد الدولة الوسطى

مقدمة

استقبلت البلاد المصرية بتولي ملوك الأسرة الثانية عشرة عصرًا ذهبيًّا جديدًا، فقد نهضت البلاد بعد الهوَّة السحيقة التي دُفعت فيها، وعادت ثانية إلى رفعتها القديمة، غير أن الدولة في عهدها الجديد لم تظهر بنفس المظهر الذي كانت عليه في عهد الدولة القديمة، فإن الفرعون وإن كان يحكم البلاد من أقصاها إلى أقصاها دون منازع، وأصبحت تمثل فيه وحدة البلاد وقوتها، إلا أن علاقته بها لم تكن مع ذلك هي نفس علاقة الفرعون بالبلاد في عهد الدولة القديمة، فلم يعد التاج يملك أراضي يخطئها العد والحصر، ولم تكن حكومات المقاطعات في قبضة موظفين تابعين لسلطان الفرعون مباشرة، ومن ثم يمكنه أن يعزلهم بجرَّة قلم متى اقتضت إرادته ذلك، بل أصبح سلطانه في الواقع أكثر انكماشًا لتقيده بأمراء الإقطاعات الوراثيين، وحتى عندما تغيرت هذه العلاقات في النصف الثاني من حكم هذه الأسرة لم تعد مكانته إلى ما كانت عليه في عهد الدولة القديمة، فإن الفرعون كان قد سقط نهائيًّا من عليائه الإلهية المحفوفة برهبة لا يمكن الدنوِّ منها، وأصبحت له هيبة الحاكم فقط، ولم يقضَ على نفوذه وهيبته جملة بسبب ما حاق بالبلاد من تدهور عميق طويل المدى؛ وذلك لأن الضمان الداخلي الذي كان من مميزات الدولة القديمة، لم يكن ميسورًا لملوك الأسرة الثانية عشرة، فكان لا بد لهم من أن يحاربوا في سبيل الوصول إلى ذلك حتى يستقيم لهم الأمر، ويقبضوا على ناصية الحكم.

من أجل ذلك كان لزامًا عليهم أن يكوِّنوا جيشًا في باكورة حكمهم ليشد عضد الفرعون؛ إذ كانت البلاد ملتهبة بقيام الفتن والمؤامرات خلال الجزء الأول من عصر أسرتهم؛ ولذلك يجب على الناقد الفطن عندما يسمع الشعراء يتغنون بقوة الفرعون، أو بتمثيله في صورة إله في الأناشيد التي تفيض حماسة، أو في التحذيرات والتعاليم التي تحث على الوفاء له، والخوف من غضبه وبطشه، ألا يظن أن مُثُل الملكية العليا قد تحققت بعد، بل على العكس يجب أن يرجع هذه الظاهرة إلى الانحطاط والضعف؛ فإن مصر التي درجت في عصر ما قبل التاريخ إلى مراقي المجد على مهل حتى وصلت إلى رفعتها الشامخة في عهد الدولة القديمة، كانت تختلف عن مصر التي قد بدأت تنهض من الحضيض الذي عاشت فيه أجيالًا لتكون دولة جديدة، لها بهاؤها القديم وعظمتها التالدة، وقد كان لزامًا على ملوكها أولًا أن يصلوا إلى المكانة التي كان الماضي قد أوصل بلادهم إليها، فيرجعوها إلى قوتها الغضة، ويبرزوها في ثوب من الحياة قشيب، ويتمتعوا بما وصلوا إليه من معرفة غابرة.

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الثقافة التي أتت عن طريق التطور السياسي قد تمخضت عن أسس عريضة بين الأهلين؛ فلم تعد العاصمة بعد مركزهم الرئيسي، كما أصبح بلاط أمراء الإقطاع مكانًا للعناية بالعلوم والفنون في طول البلاد وعرضها، وكذلك أصبحت الطبقة المتوسطة الحرة تقوى في البلاد، وتأخذ مكانتها في الصف الأول من الحياة الاجتماعية؛ يضاف إلى ذلك أن التطور في العلاقات السياسية في عهد ملوك الأسرة الحادية عشرة الأواخر، قد وصل إلى درجة أدت إلى إبراز شخصية الدولة الوسطى لأول مرة في عهد الأسرة الثانية عشرة بعد أن ضاعت باختفائها شخصية الملك وهيبته، ومؤسس هذه الأسرة هو «أمنمحات الأول» كما ذكرنا من قبل.